المرأة والدولة

في فجر الاسلام

للسيدة الباحثة نابية أبوت
ترجمها وعلق عليها : محمد عبد الغني حسن

تمهيد للمترجم

كلفة هذا المقال هي الباحثة في الشرقيات السيدة نابية أبوت Nabia Abbot بمعهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو . ولها كتاب طبع في شيكاغو سنة ١٩٣٩ عن نشأة الخط العربي الشمالي (١) وتطوره في كتابة المصاحف . ويظهر أن لها أبحاثاً متفرقة في « المجلة الاميركية للغات السامية وآدابها » The American Journal of Semitic Languages and Literatures التي تخرجها جامعة شيكاغو أربع مرات في كل عام : وهي المجلة التي ترجمنا عنها هذا البحث الطريف

وهذا البحث يعرض لنا عرضاً شائقاً دوراً للمرأة العربية في فجر الاسلام . وهذه الصور مبعثرة في كتب التاريخ والسير ، وقد تجمد الصورة الواحدة ملونة بألوان تتفق مع ميول الرواة والمؤرخين وأهوائهم المذهبية والسياسية والقبلية « نسبة الى القبيلة » . إلا ان السيدة نابية أبوت استطاعت بحذقها ومهارتها وفطرتها الفنية أن تؤلف بين هذه الالوان المتنافرة حيناً والمتآلفة حيناً آخر ، وأن تجمع منها صوراً منسجمة الالوان مؤتلقة الضياء والظلال

ولقد رجعت الباحثة الى مئات من المراجع المختلفة ما بين عربي وأفرنجي ، وشرقي وغربي ومخطوط ومطبوع مما سيجده القارئ في حواشيها التي تدل على بسطة في الاطلاع وسعة في البحث وتمكن من الموضوع

ولقد حاولت في الترجمة جهدي أن أكون أميناً في النقل ، حريصاً في الاداء . وخاصة في عبارة الباحثة نفسها . أما ما يعرض خلال ذلك من مناقشة أو محاورة أو قصة طريفة فقد بعدت قليلا عن الكتابة وعباراتها ، ووجهت الى العبارة العربية والرواية التاريخية في مظانها ومصادرها من كتب السير والتاريخ والادب العربية . ويجد القارئ مثلا لذلك في حديث هند بنت عتبة مع النبي عليه السلام في المبايعة ، وحديث هند مع النساء في مخاطبة كل منهما صاحبتها وتعييرها . ولم يخرجني الحرص على العبارة العربية عن جادة الامانة في الترجمة

ورأيت أن أضيف الى المقال بعض تعليقات توسع أطراف الموضوع مما اضطرت الباحثة الى اجماله أو اغفاله ، ووضعت هذه التعليقات بين حاصرتين في حرف اصغر من الحرف الذي جمع به أصل البحث دلالة على انها من قلم المترجم لا من كلام الباحثة الفاضلة

وأنا سعيد أن أتاح لي صديقي حسن وجبي تحرير المقتطف ... هذه الفرصة الكريمة لنقل هذا البحث الطريف المفيد من الانكليزية ، فقد جعلني هذه الترجمة أرجع الى كتب لم أكن لأعرفها لولا الاشارات التي أشارت اليها الباحثة وأستخرج منها ما يفيدني علماً ويكسبني معرفة — وخاصة كل ما يتعلق بسيرة النبوة

وكذلك عاد هذا النقل إلي ، فاذا وجد القراء في البحث متعة فائدة — وذلك ما لا يجحدني فيه ريب — فالفضل في ذلك عائد الى الباحثة التي لاءمت بين تلك الاشتات المنثورة هنا وهناك وأخرجت منها صورة حية لمنزلة المرأة العربية في نواح مختلفة من حياتها . كما أن الفضل لمحرر المقتطف الذي آثر علي بترجمة هذا المقال حتى يطلع عليه قراء العربية لان المجلة الاميركية التي عنها نقلت لا يتناول الكثير من أهل العلم وطلاب البحث

وبقدر هذا البحث وغزارته وسعة أطرافه مما يشهد لكاتبته بالفضل والعلم الغزير ، فالقارئ يجد فيه ما يتحدث عنها

محمد عبد الغني حسن

---

(١) تفرعت من الخط العربي الشمالي فروع منها الخط الكوفي والخط المكي والخط المدني

— ١ —

وضحت في مقال سابق أن جزيرة العرب في القديم كان فيها ملكات تفردنَ بالسلطان ، وأن بعض هؤلاء الملكات كنَّ كاهنات يدعون الى الآلهة المحليين . وهكذا كان هؤلاء الملكات يحاذين في السلطة الدينية والزمنية ملوك الدين والدنيا الذين كثيراً ما ورد ذكرهم في تاريخ الشرق القديم

(ملك الدين والدنيا هي ترجمة وضعتها لكلمتي Priest-King التي استعملتها الباحثة . وقد أجاز لنا وضع هذه الترجمة قول الشاعر :

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

وقول الشاعر الآخر :

أضحى أمام الهدى المأمون مشتغلا بالدين والناس بالدنيا مشاغيل)

ولقد كاد يختفي عصر ملكات جزيرة العرب — تلك الجزيرة التي أنجبت في زمن سحيق « جوليا » ملكة حمص و « زنوبيا » ملكة تدمر

(هي زينب ملكة تدمر ، وتعرف عند الرومان بزنوبيا أميرة ملوك الشرق . تولت عرش تدمر بعد زوجها أذينة الذي قتل عام ٢٦٧ ميلادية ، وغزت مصر واتسعت رقعة مملكتها تأثراً بذلك سخط الرومان عليها ، فزحف عليها اورليان قيصر الروم فخرجت للقائه قرب انطاكية وحمص . وكانت الدائرة عليها . ثم أعاد الكرة عليها في بلادها حتى تداعت أمام جيوشه أسوار تدمر . وأخذت زنوبيا أسيرة الى عاصمة الرومان في موكب ، وهنا فيه ثقل قيود الذهب في رجليها . وهي غير الزباء ملكة الجزيرة ومشارق الشام التي نهضت للاخذ بثأر أبيها من قاتله جذيمة الابرش — الترجم عن الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ص ٢١٩ ، ٢٢٧ ودائرة معارف Nuttal وبلوغ الارب للالوسي ص ١٧٧ ج ٢)

وقبل ظهور الاسلام ببضعة قرون وهي الفترة التي أطلق عليها المؤرخون من المسلمين اسم عصر الجاهلية ، ظهر في جزيرة العرب ملكات لم يصل الينا من تاريخهنَّ الا القليل ، منهن بلقيس الحميرية ، وماوية الغسانية ، وهند اللخمية

(اسمها هند بنت النعمان بن المنذر اللخمية . فاذا صح هذا فان هذه ملكة غير بيضاء ولكنها كانت بنت النعمان ملك الحيرة ، وزوجها عدي بن زيد العبادي الذي يتبع منزلة سفيره في ديوان كسرى . وعدي هذا هو الذي اجتبه عند كسرى حتى ملك النعمان بن المنذر الحيرة — جواد لوغ الارب ص ٢٦٣ ج ٢ ، والدر المنثور)

وكثير من ملكات الغسانيين واللخميين والكنديين لم يصلنا من أخبارهنَّ الا القليل فيما لدينا من مصادر . حتى ان بعضهنَّ لا نعرف عنهنَّ الا اسماءهنَّ . وقد يكون سبب ذلك ندرة المصادر وفقرها من ناحية ، أو تحير المصادر الاسلامية في القرنين الثاني والثالث وعلى كل حال فان ندرة الاخبار عن المرأة في العصور السابقة للاسلام قد يكون فيها بعض الدلالة على ما خسرته المرأة العربية من مزية الظهور في ميدان الحياة العامة

وقد يكون تغير الاحوال الاجتماعية الناشىء عن الاتصال بالامم والممالك المجاورة سبباً في حرمان المرأة العربية — في العصر الذي نحن بصدد الحديث عنهُ — النفوذ والمزايا التي

تمتعت بها أختها في العصر القديم . ومهما يكن من الامر فان ذلك كله لا يعني ان المرأة العربية في تلك الحقبة أصبحت عديمة النفوذ في الأوجه المختلفة من حياتها الخاصة والعامة . فلقد كانت تتمتع بنصيب من الحرية ، وكانت على اختلاف طبقاتها تمثل دور الزوجة الصالحة والأم الطيبة. كما استطاعت ان تظهر نفسها في هذين الدورين أشد ما تكون قوة واكثر ما تكون حرية

أما في الشعر — وقد كان هوى سائداً في جزيرة العرب قبل الاسلام - فقد ظهرت المرأة العربية ظهوراً بيناً . ولم يقتصر ظهور المرأة في الشعر الجاهلي على أن تكون هي موضوعاً للغزل عند الشعراء الغزلين ، يظهرون محاسنها ويتغنون بها في شعر عاطفي ؛ بل تعدى ذلك الى أن الشريف من العرب وهو على حال بين الحضارة والبداوة طمع في حكومتها الادبية ورفع من منزلة آرائها كناقدة

فهناك قصة امرىء القيس الكندي المعروف بالملك الضليل واعظم شعراء العربية، فقد ظل بعد مقتل أبيه جائلاً بين احياء العرب حتى نزل على بني طي وتزوج واحدة من نسائهم تعرف بأم جندب

(تضبط الباحثة أم جندب بفتح الدال والصواب ضمها مع الجيم — عن جورجي زيدان والاعلام للزركلي)

وكان امرؤ القيس معاصراً للشاعر المشهور علقمة بن عبدة

(كتبته الباحثة ابن عبيدة والصواب عبدة بفتح العين والباء — عن الاغاني وزيدان والزركلي)

فتنازعا أمارة الشعر ، ولم يعترف احدهما لصاحبه . واخيراً اقترح علقمة أن تكون الحكومة في هذه الخصومة الادبية لأم جندب ورضي امرؤ القيس بهذه الحكومة. فدعتهما أم جندب ليصنع كل منهما قصيدة من وزن واحد وقافية واحدة يصفان بها الجياد . فلما فرغا من عمل القصيدتين حكمت أم جندب لعلقمة على زوجها امرىء القيس فغضب وطلق امرأته فتزوجها علقمة (١)

وهذه القصة قد تكون خرافية — لأن الخصومة بين هذين الشاعرين ليست موضع اليقين (٢) الا أن ظهور المرأة العربية الناقدة في بلاد ظهر فيها كثير من النساء الشاعرات المعترف بمزلتهن الادبية المختلفة ليس امراً بعيد الاحتمال . لأن العربي قبل الاسلام عدد [illegible] في الحق — بإشتراك المرأة الشاعرة في كثير من النواحي العامة (٣)

وفي هذه المناسبة يستطيع المرء أن يذكر اسم الشاعرة تماضر الخنساء أعظم شواعر الجاهلية وهي التي أدركت ظهور الاسلام واعتنقت الدين الجديد، وكان النبي يعجب بشعرها ويثني عليها (٤)

---

(١) الاغاني ج ٧ ص ١٢٦ — ١٢٨

(٢) تاريخ الادب العربي لكارل بروكلمان (٣) ريحانة الادب في مراثي شواعر العرب للاب شيخو اليسوعي (٤) الاصابة لابن حجر . وشرح ديوان الخنساء للاب شيخو ص ١٩ — ٢٣

وفي الحياة الدينية التي ترتبط على وجه العموم بالتقدم السياسي والاقتصادي والخير العام للشعب نرى طبقة معينة من النساء كان لهنّ في الجاهلية شأن منظم محدود المعالم . ومن هؤلاء الكاهنة والعرّافة وربة البيت والمتنبئات من حين الى حين . ويظهر أن عملهنّ كان يماثل من وجوه كثيرة عمل مَن يقابلهنّ من الرجال المعروفين باسم الكاهن والعرّاف وربّ البيت والمتنبيء

(من العرافين المشهورين في تاريخ الادب العربي عراف اليمامة وعراف نجد وفيهما يقول الشاعر :

قل لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد ان هما شفياني

ويقول شاعر آخر

ولو جاء عراف اليمامة يبتغي ... شفائي لرد الطرف وهو حسير

وفي ربة البيت يقول أحدهم

يا ربة البيت قومي غير نائمة ... ضمي اليك رحال القوم والقربا)

والمصادر المعروفة لدينا عن الكاهنة في الأدب العربي أكثر من أن تحصى [٥] . والسير القديمة تربط بين هؤلاء الكواهن وبين التيارات الكبرى في سياسة القبائل والهجرات المختلفة . ونذكر على سبيل المثال هنا القصة المشهورة عن الزوقاء

(أشارت الباحثة هنا الى مصدر هذه القصة في دائرة المعارف الاسلامية مادة تنوخ — وهي ليست تحت يدي ولعلها تريد زرقاء اليمامة المشهورة بحدة بصرها)

التي استطاعت برؤاها وصدق منطوقها أن تكون رائداً لتحرك التنوخيين من الحين الى بلاد الحيرة [٦]

وهناك ايضاً قصة تعادل هذه القصة في تبيان ما للكاهنة من مقام وهي قصة «طريفة» التي صحبت قبائل أخرى من الحين الى بلاد الحجاز [٧]

وكان للكواهن شأنهنّ في حرب البسوس بين بكر وتغلب ، وفي واقعة ذي قار [٨] بين العرب والفرس

(سبب هذه الواقعة قتل النعمان بن المنذر اللخمي عديّ بن زيد العبادي وكان عدي من تراجمة كسرى بن هرمز . وقد ثار كسرى للنعمان بعد مكيدة صنعها زيد بن عدي لابيه . فقامت الحرب بين الفرس والعرب . انظر تاريخ ج ٢ ص ١٥٢ . ابو الفداء ج ٢ ص ٢٦٥

وقد جاء في مسند أحمد بن حنبل

(صبيطة : بلدة بين بغداد بفتح الميم والبواب ضبطا)

ان كاهنة تنبأت لقريش بمبعث الرسول قبل البعثة بعشرين عاماً [٩] وروى ذلك ايضاً ابن

(٥) دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٦٢٤ — ٦٢٦ ؛ Encyclopaedia of Islam ج ١ ص ١٣٠ ؛ والاب انستاس ماري الكرملي ، والاب هنري لامنس في كتابه بلاد العرب القريبة قبل الهجرة طبع بيروت ص ٦٠

(٦) ملحق دائرة المعارف الاسلامية مادة تنوخ (٧) الاغاني ، ومروج الذهب للمسعودي (٨) هنري لامنس المصدر السابق (٩) مسند احمد بن حنبل طبع القاهرة ص ٣٣٢ وتاريخ ابن عساكر المعروف بالتاريخ الكبير ص ٣٦٧

عساكر في تاريخه الكبير . وكثيرات من هؤلاء الكواهن ورد ذكرهن في وقت النبي — عليه السلام — فهناك « الغيطلة »[١٠] القرشية

(وهي من بني مرة بن عبد مناة بن كنانة وقيل لاولادها الغياطل . وفيهم يقول ابو طالب عم النبي :

لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا بني خلف قيضاً به والغياطل

من قصيدته التي يقول فيها عن محمد عليه السلام

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للارامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواضل

وابن هشام صاحب السيرة يذكر أن بعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثر هذه القصيدة — عن ابن هشام ص ١٧١)

وهناك كاهنة بني حدس[١١] وحزام كاهنة بني سعد ، وفاطمة بنت النعمان التي ظهرت في مكة في زمن الهجرة . وهناك كاهنة لم تذكر المصادر اسمها ظهرت في المدينة في قرابة ذلك الوقت[١٢]

ولم يختف هؤلاء الكواهن اختفاء تاماً[١٣] بعد ظهور النبي الذي كان يقول عنه خصومه انه كاهن

(وفي كتب السيرة أن الوليد بن المغيرة اجتمع اليه نفر من قريش وكان ذا سن ورأي فيهم . فقال لهم ماذا تقولون في محمد ؟ قالوا : نقول كاهناً . قال والله ما هو بكاهن)

ولقد بدأت سجاح التميمية دورها في ادعاء النبوة — كما سنرى عما قليل — بظهورها كاهنة ولم تكن أعمال الكاهن أو الكاهنة في العادة مقيدة بقيود . وكثيراً ما كان الكاهن يتولى عمل الحاكم الذي يفصل بين الناس[١٤] في الخصومات . ومن الصعب أن نتتبع الكواهن اللائي قمن بمهمة الحكم في الأمور الا أنه ورد لبعضهن ذكر في كتب السير[١٥]

وفي بعض الاحيان كانت الكاهنة تقوم على بيت لعبادة الهة معينة فتدعى من أجل ذلك ربة البيت . وخصائص وظيفة ربة البيت لا تبدو واضحة لنا ، ولو ان طبيعتها الدينية الرسمية ليست موضعاً للشك

وربة البيت لا يدور اسمها كثيراً في كتب السير كما يدور اسم الكاهنة ، وقد يكون مرد

---

(١٠) سيرة ابن هشام طبعة ويستنفلد ص ١٣٢ (١١) المصدر السابق ٧٩٧ (١٢) طبقات ابن سعد ج ١ الورقات ٤٩ ، ١١٠ ، ١٢٦ (١٣) الاغاني ج ٢١ ص ٢٧٥ (١٤) كتاب لانلس السابق ص ١٠٩ ، ١٣٥ ، ١٥٨ (١٥) الاغاني ج ٢١ ص ٢٠٦ يذكر عدداً من هؤلاء ، وكذلك الاب أنستاس الكرملي في كتابه السابق ص ٦٠ ، وكذلك المستشرق فرايتاج

ذلك الى تغير في مقامها الاجتماعي في العصور القريبة من ظهور الاسلام او الى تغير في معنى كلة رب . . وربة ، وقد أخذت اولاها معنى جديداً في الاسلام

ففي الجاهلية كانت اللفظتان تطلقان على الكائنات البشرية ، فلما جاء الاسلام صار «الرب» اسماً لله تعالى وحده ،[١٦] اما الربة فلم يعد لها استعمال ديني . وبالرغم من ذلك فقد ظهر في عهد النبوة اثنتان أو ثلاث من هؤلاء الربات[١٧] ولكن واحدة منهن واسمها سارة بنت لبهان اعتنقت الاسلام[١٨] .أما المتنبئات من العرب فانهن يظهرن في التاريخ أقل ندرة من هؤلاء الربات . وفي الحق اننا نعرف واحدة من اكثر هؤلاء المتنبئات نشاطاً — وهي سجاح المشهورة التي سيرد ذكر ادعائها النبوة بعد قليل ، وقد ظهرت حركتها بعد وفاة النبي

— ٢ —

لقد رأينا ان نشير الباحثة الى مقال لها سابق عنوانه « ملكات العرب قبل الاسلام » نشر في المجلة الامريكية للغات والآداب السامية سنة ١٩٤١) كيف كانت الملكات في بلاد العرب القديمة يقدن جيوشاً جيوشهن أو يصحبن أزواجهن في غاراتهم . وما كانت الملكة تفعله في الحرب كانت كل امرأة اخرى تفعله . ولهذا ليس بالعجيب ان نجد المرأة العربية في فجر الاسلام تلعب ادواراً عديدة في أيام العرب[١٩] . وفي بعض الاحيان كانت المرأة العربية الباعث على الغارات بين القبائل . وفي بعض الاحيان كانت تستعمل فطنتها لتشترك في الحروب بالتجسس على اخبار العدو حرصاً على مصلحة أسرتها أو قبيلتها . وكثيراً ما كانت تثير الحماسة في نفوس الرجال أو تساعدهم اذا لم تخرج معهم الى ميدان القتال . وكثيراً ما رأينا امرأة دفعت أخاها أو زوجها أو ولدها الى أعمال البطولة . وما اشتهت المرأة العربية من لقب أحلى لديها من أن تلقب بالمنجدة او أم الابطال[٢٠]

ومع ذلك فان مهمة تحريض المحاربين على القتال وبث الشجاعة في نفوسهم الى حد الموت لم تكن متروكة في الغالب الى وطنية المرأة العادية بل كانت بدلاً من ذلك موكولة الى نظام مميز كل التمييز نستطيع أن نسميه نظام المرأة المرصة أو الباعثة على الظفر[٢١] وفي هذا النظام نرى امرأة من طبقة اجتماعية ممتازة تضرب في خيمة لها تمثل بيتاً مقدساً لالهة هذه القبيلة . بينما ترى نساء أخر مختلفات العدد يصحبنها

---

(١٦) لانفس ص ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، (١٧) المصدر السابق ص ١٥٢ ، ١٨١) صفة ابن سعد ج ٨ ص ٢٢٧ ؛ ومقال في مجلة الندوة الاسلامية التي تصدر بالانكليزية عدد ١٣ ص ٢٩٨ سنة ٣٩ بعنوان « وائل الباحثات الى الاسلام »

(١٩) المرأة في أيام العرب طبع لندن سنة ١٩٣٥ ص ١٣ ، ٢٠) مقالات في تاريخ العرب تأليف كوسان دي برسفال طبع باريس ؛ وتاريخ الادب العربي لبكلسون والاغاني ج ١٦ ص ٢٠ (٢١) جبير

ومن هؤلاء النساء تتكوّن عصبة مقدسة على مشهد ومسمع من الرجال المحاربين وقد يخضن معهم المعمرات من مبدئها يحرضن الرجال ويغرينهن بالقتال وهن يغنين الأغاني الحماسية مصحوبة بعزف المزاهر

وزعيمة هذه العصبة هي المرأة المحرضة نفسها وقد أرخت غدائرها وكشفت عن بعض جسدها لتثير في نفوس الرجال البسالة والشرف والحماسة . وقد اجتمع الرجال حولها وحول النساء معها وحي الوطيس الى أن يكتب لقومها النصر او الهزيمة

(روى الطبري ج ٢ ص ١٥٣ ان امرأة من بكر وقفت في واقعة ذي قار تحض الناس بقولها

ان تهزموا نعانق ونفرش النمارق
أو تهربوا نفارق فراق غير وامق)

ولا شك أن في مزاولة هذه الحرفة دلالة دينية قديمة غامضة بشيء من الغموض ، ولكن أثرها النفسي في نفوس المحاربين لا ينبغي ان يُستقل تقديره[٢٢] فان أمر هذه المحضة — تبعاً لتقاليدهم في الحروب — معناه خسارة الموقعة . وما يترتب على ذلك من ازدراء النساء اللائي كنّ سبباً في قهر المحاربين ! اما أسر بقية النساء فانهُ يعني أسرَ قاهنّ وهوانهنّ

وفي ساعات الحرج ولحظات القنوط — كما حدث في واقعة ذي قار[٢٣] — يجمع الرجال بين أمرين : اما ان يعرقبوا الابل الحوامل للنساء او يقطعوا وُضُنَ الهوادج وحُزُم الرحال حتى يسقط النساء على الأرض وهذه الحيلة التي تعجز النساء في لحظة يتعرضن فيها للخطر الداهم — يقصد بها ان تبعد من عقول الرجال كل فكرة ترمي الى الارتداد او الهرب وكذلك ترى الرجال مضطرين الى القتال او الموت

وقد لعبت المرأة دوراً آخر خطيراً في أثناء المعركة وبعد انتهائها[٢٤] : — فكانت منهنّ جماعات أشبه بجماعات الصليب الأحمر خلف خطوط القتال . بينما كان أكثرهنّ شجاعة يتقدمن في وسط المعمعة يحملن الماء ليسقين العطشى من الجنود ويضمدن جراحهم . وبعد انتهاء المعركة ترى النساء في الميدان وقد انتشرت فيه الأشلاء ، والمثلاً بالجرحى والساقطين من الاعياء ، يحملن عصيًا وهراوي يجهزن بها على المجروحين من أعدائهنّ حتى يسلمنهم الى النزع الأخير . وفي حالات قليلة قد يلجأ بعض هؤلاء النساء الى المثلة والتعذيب الوحشي وتشويه الاجسام ليشفين حقد نفوسهنّ الظامئة الى الانتقام[٢٥]

---

(٢٢) لامنس ص ١٢٠ — ١٢٥ (٢٣) الطبري ج ٢ ص ٦٤٣ ، وزيادة البحث أنظر جبير
(٢٤) جبير (٢٥) جبير